العقيدة الدينيّة ومبرّرات الحوار بين الأديان(*)

الأب د. عادل تيودور خوري
جامعة مونستر – ألمانيا

كلمة الحوار تتردّد على أفواه النّاس في العالم كلّه، وكأنّها علامة لعهد جديد في صياغة العلاقات الاجتماعيّة بين الأفراد، والعلاقات السياسيّة بين الدّول والشّعوب، والعلاقات الدينيّة بين الأديان والمذاهب. (ونحن هنا بصدد الحوار بين المسيحيّين والمسلمين في أبعاده المختلفة وأهدافه المتعدّدة). وقد رأيت أن أعرض (على القارئ) بعض الخواطر في ضرورة الحوار وفي الدوافع التي تحملنا اليوم على الإكباب عليه لاستنباط فوائده، وفي الرّوحيّة التي يجب أن يستوحيها المحاورون لكي يبلغ بهم حوارهم إلى ما قصدوه من جهودهم.

١– ضرورة الحوار

ضرورة الحوار تتّضح من وضع عالمنا اليوم. إنّ عالمنا الحاضر تتقرّب أجزاؤه بعضها إلى بعض، رغم المشادّات التي تقلق سيره إلى الوحدة الشّاملة، ورغم تهشّمه وتضعضع قواه، ورغم تطلّع العديد من شعوبه إلى استقلال أوسع وانفراج ثقافيّ أشدّ ثباتاً. عالمنا الحاضر يسير بدون رجعة إلى وحدة شاملة، قد بدأت تتّضح في المرحلة الأولى أبعادها الاقتصاديّة. في مثل هذا العالم لا يمكن أحداً أن يعيش وحده في عزلة متكبّرة، ولا تستطيع أيّ جماعة أن تضمن وحدها ازدهارها ومستقبلها، ولا يتمكّن دينٌ معيّن أن يتوهّم أنّه يملك المفتاح لحلّ جميع معضلات البشريّة أيّا كان نوعها.

(*) ألقيت هذه المحاضرة في معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ اللاّهوتيّ – جامعة البلمند في ٢٠٠٠/١٢/٢.

في هذا الوضع الرّاهن لكلّ قطاع من المجالات الحياتيّة في المجتمع والدّولة والعلاقات الدّوليّة أهمّيّته الخاصّة ودوره الخاصّ. وهنا يتّضح بجلاء ما هو المقام الذي تحتلّه الأديان في العالم، وما هي الوظيفة التي تقوم بها في حياة الشّعوب. إذ إنّ أكثرها تُعتبر قواماً لحياة الجماعة أو مُسهِمة في تأمين هذه الحياة، وبالتالي شريكة في حياة البشريّة جمعاء. والأديان في مختلف بلدان العالم (على الأقلّ خارج الدّول الغربيّة) تشهد اليوم نهضة واضحة وتبدي نشاطاً فعّالاً. إلى ذلك فإنّ قيام البحث عن أبعاد تفوق الدنيا والميلَ إلى مظاهر قريبة من الشعائر الدينيّة – وإن لم تكن مرتبطة بدين معيّن – إن إفاقة البحث عن معنى الحياة والمجتمع والتاريخ وعن الأبعاد السامية، إن كلّ هذا الدليل واضح على تعلّق الإنسان بالله وحاجته إلى الخلاص وتطلّعه إلى سبل هذا الخلاص.

في هذا الإطار البشريّ تقوم الأديان بدور لا غنى عنه، إذ إنّها تقدّم مجموعة منتظمة من حقائق خلاصيّة، توضح غاية ومعنى الحياة بالنسبة إلى الله وعلاقة الإنسان بالله، وبالنسبة إلى الكون، والحياة والموت، وتاريخ البشريّة الشّامل. وتقدّم الأديان بواسطة ما تؤكّده لشرح أبعاد الكون والحياة، والنّشوء والتاريخ، توجيهاً يساعد على الاطّلاع الموفّق بمهامّ الحاضر، وضبط الماضي والتخطيط لمستقبل مُفْلح.

وفيما تعود الأديان إلى مرجع إلهيّ ماورائيّ، يمكنها أن تقوم كناقد ومصحّح في وجه شتّى أنواع الاستبداد الدنيويّ: استبداد الايديولوجيّات التي تسعى قهراً في تحقيق أحلام مستقبليّة على حساب الحاضر وحياة أبنائه؛ واستبداد التّسلّط والعنف التي تفرض مطالبها وكأنّها تسترق قدرة الله العليّ.

وإنّ الأديان تقدّم قبل كلّ شيء جواباً عن السّؤال عن الواجب والتّصرّف الأخلاقيّ وعن الخلاص، كمصالحة الإنسان مع نفسه ومع سائر البشر، وكمصالحة مع الخليقة، ومصالحة مع الله.

أخيراً تقوم الأديان في شعوب وجماعات عديدة بدور حاسم في صياغة ذاتيّتها الثّقافيّة. في عالم نشب فيه سباق حارّ بين العقائد والنّظريّات المختلفة، تسعى الشّعوب إلى صيانة هويّتها الخاصّة تجاه النّظريّات والمناهج الغربيّة المستوردة. وإذا بالدّين والتّراث يبسطان للشّعوب قواعد ذاتيّتها الثّقافيّة. وإلى الاهتمام بصيانة الهويّة الخاصّة ترى الشّعوب نفسها متوجّهة إلى التعايش مع التّقاليد والثّقافات الأخرى، لكي يمكن أن

يقوم من وراء حدود الذّاتيّة الخاصّة نظامُ قيمٍ أساسيّة مُوحّد يساعد على تشييد عالم واحد ويساند قيام ثقافة عالميّة، ثقافةٍ لا تعمل على تسوية جميع العناصر في العالم، بل تتجلّى في مظهر متعدّد الألوان.

في وضع العالم هذا ليس لمؤمني الأديان المختلفة سوى سبيل واحد، سبيل التّفاهم والحوار، والتّعاون للتّغلّب على عداوات الماضي والإعداد لمستقبل مشترك.

٢- الحوار بين المسيحيّة والأديان الأخرى

إنّ النّظرة المسيحيّة (الكاثوليكيّة) للأديان، ولا سيّما الإسلام، قد تحوّلت رويداً رويداً في السنين الأولى من هذا القرن العشرين من موقف سلبيّ إلى موقف معتدل يحاول التّمييز بين المعطيات المشتركة والعناصر التي تقع عليها الشّبهات. وقد تطوّر هذا الموقف تطوّراً إلى نظرة إيجابيّة أثبتها بطريقة علنيّة رسميّة المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ في الستّينات من هذا القرن.

١) دوافع التحوّل

أمّا دوافع هذا التحوّل فهي عديدة أهمّها

١. حصيلة البحث العلميّ في تاريخ الأديان المقارنة، التي اضطَرَّت المفكّرين وعلماء اللاّهوت إلى إعادة النّظر في حكمهم على هذه الأديان، ليقينهم أنّ عدداً كبيراً من معطيات هذه الأديان يمكن الموافقة عليه والنّظر إليه نظرة إيجابيّة.

٢. أمّا الدّافع الثّانيّ فهو تحرّكُ الدّين والتّراث الدّينيّ ونهضةُ الأديان في شتّى بلاد العالم وتزايدُ أهمّيّتها وتأثيرُ أفكارها وقيمها على حياة الأمم والشّعوب والطّوائف المختلفة. ممّا دعا إلى إعادة النّظر إليها وتصويب تقييمها على حياة الأمم والشّعوب والطوائف المختلفة. ممّا دعا إلى إعادة النّظر إليها وتصويب تقييمها في نظر اللاّهوت المسيحيّ الكاثوليكيّ.

٣. أمّا الدّافع الثالث فهو وعي المسيحيّة وعياً أعمق وأوسع لأبعاد الدّين الشّاملة:

لأبعاد الخلاص الذي يعمّ البشر جميعاً.

ولأبعاد شعب الله وأمّته التي تتّسع إلى آفاق الأرض.

ولأبعاد دين الله الذي يشمل النّاس جميعهم ويعمّ تاريخ البشر في جميع حقبه.

٤. الدّافع الأخير هو (ما عبّر عنه المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ نفسه حين قال): "إنّ الجنس البشريّ يزداد تقارباً يوماً بعد يوم. وإنّ العلاقات بين الشعوب تزداد وثوقاً". لذلك حدّد المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ موقف الكنيسة الكاثوليكيّة من الأديان غير المسيحيّة مراعياً في ذلك الاعتبار التّاليّ: "وفقاً لمهمّتها في أن تدعم الوحدة والمحبّة بين البشر وبذلك بين الشّعوب، تنظر (الكنيسة) قبل كلّ شيء إلى ما هو مشترك بين النّاس ومن شأنه أن يقودهم إلى الشركة بعضَهم مع بعض" (Nostra aetate, 1). والمسيحيّة لا ترفض شيئاً ممّا هو في الأديان غير المسيحيّة "صحيح ومقدّس" (Nostra aetate, 2). إن كانت المسيحيّة لا تستبعد أن توجد في الأديان الأخرى عناصر صحيحة ومقدّسة، فذلك لأنّها ترى في تعاليم هذه الأديان وشرائعها "بذور الكلمة الإلهيّة"، التي وضعها الرّوح القدس في قلوب البشر، والتي نمت عندهم "بفعل عناية الله" (Optatum totius, 16) [تثقيف الكهنة.] وتعتبر لذلك "شعاعاً من تلك الحقيقة" التي هي حقيقة الله وحقيقة المسيح (Nostra aetate, 2). فإن كان وجود الخير والحقيقة في تلك الأديان راجعاً إلى فعل عناية الله، فعلى المسيحيّين ليس فقط أن لا يرفضوها، بل أن يعترفوا بها ويساعدوا على صيانة القيمة الروحيّة والأخلاقيّة النّابعة عنها ودعمها. وهذا يقوم بالحوار والعمل المشترك مع طرفي الأديان والأديان الأخرى (Nostra aetate, 2).

إنّ الأديان غير المسيحيّة لم تَعُد يُحكم عليها بدون تمييز كضلال آثم، وأديان خاطئة. ولم تَعد تُرفض جملة تعاليمها ومقاييسها ونُظُمها العمليّة. بل هي تستحقّ معاملة إيجابيّة صادقة. ولقد أكّد مثلاً المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ باسم الكنيسة الكاثوليكيّة أنّه يرغب "قبل كلّ شيء في اعتبار ما هو مشترك بين النّاس ومن شأنه أن يقودهم إلى شركة أوثق" (Nostra aetate, 1). فالموقف الصحيح يقوم كما أسلفنا، على اعتبار القيم الصّالحة والمقدّسة الحاصلة في هذه الأديان والثقافات والعمل على صيانتها ودعمها.

فإن صحّ أنّ المسيح "هو الطّريق والحقّ والحياة" (يوحنّا ١٤: ٦) – وبهذا نؤمن نحن المسيحيّين، فهذا يعني أنّ كلّ حقيقة في العالم، أينما وُجدت، – وكلّ طريق يؤدّي إلى الحياة، أينما سَلك، – وكلّ حياة مليئة من نعمة الله، أينما اكتملت، فهي ليست غريبة عن المسيح، بل تربطها بالمسيح روابط النسب الوثيق. ولذلك فعلى جماعة المسيحيّين

– على الكنيسة – التي من مهمّتها أن تكون موطن تفتّح الحقيقة، ومسلك سبُل الحياة، وموطن انتعاش الحياة الإلهيّة، – عليها أن تعترفَ بقرابة جميع مظاهر الحقيقة والحياة وتفتح لها أبوابها.

٢) بعض الاستنتاجات الأولى

من هنا يمكننا أن نستخلص نتائج تجعلنا نتطلّع إلى آفاق جديدة في شأن علاقة المسيحيّين بالآخرين وفي شأن السّعيّ وراء مسكونيّة رحبة تشمل ليس فقط الكنائس المسيحيّة، بل أيضاً الأديان المختلفة.

١. إثبات تعدّديّة الأديان والتكامل النسبيّ المتبادل

إنّ الإقرار بوجود عناصر حقيقة وخير، وبالتالي عناصر دينيّة صالحة في الأديان الأخرى، يقودنا إلى طرح بعض الأسئلة التي من شأنها أن توصلنا إلى مراحل متشعّبة.

(١) ما هو مقدار الحقيقة والخير في هذه العناصر، وما هو مقدار فاعليّتها لجلب الخلاص؛ إنّ السّؤال هنا يدور حول قيمة الأديان غير المسيحيّة بالنسبة إلى الخلاص وحول علاقتها بالمسيح وبالمسيحيّة أيّ علاقة تصل فاعليّتها الخلاصيّة بعمل المسيح الخلاصيّ، بالمسيح الذي هو الوسيط الأوحد بين الله والبشر (١ تيموثاوس ٢: ٥) والذي بدونه لا يتمّ خلاص لأحد (أعمال الرّسل ٤: ١٢)؟

في مجال هذه الأسئلة وأسئلة أخرى تتفرّع عنها بقي التّفكير اللاّهوتيّ المسيحيّ أن يبذل جهداً غير يسير.

(٢) إنّ قيم الحقيقة والخير التي ترتكز عليها فاعليّة الأديان الخلاصيّة: من أتى بها وما جلبها إلى الأديان غير المسيحية؟ كيف نشأت في تراث الشّعوب الدّينيّة؟ إنّ جمّاً من الأديان غير المسيحيّة سلكت في التاريخ سبلها الخاصّة ونشأت فيها قيمها، قيم الحقيقة والخير، بفضل جهدها الخاصّ. أي أنّ هذه الأديان مستقلّة نوعاً ما عن المسيحيّة التاريخيّة، إذ إنّها لم تقترض قيمتها الخلاصيّة من هذه المسيحيّة التاريخيّة.

وهذا يعني أنّ المسيحيّة في وضعها الرّاهن تؤمن بحقيقة المسيح الشّاملة، عليها أن تُقرّ أنّ معرفتها لحقيقة المسيح الشّاملة تكتمل على مدى الزّمن، وأنّ بعض هذه الحقيقة وضعها الله وروحه في بعض قيم الأديان الأخرى. وهكذا فإنّ علاقة المسيحيّة بالأديان

الأخرى يجب أن تكون علاقة الحوار. ومثل هذا الحوار لا يجري في اتّجاه واحد، بل هو تبادل من جهة الطّرفين، اللّذين هما بالوقت نفسه سامع ومخاطب، متقبّل وناقل.

وهذا يعني أنّ المشتغلين في الحوار عليهم أن يكونوا مستعدّين أن يتلقّنوا الواحد من الآخر ويتقبّلوا قيم الحقيقة والخير الكامنة في دين الآخرين ويحاولوا إدراجها في تراثهم الخاصّ. إذ إنّ جميع قيم الحقيقة والخير أينما وُجدت إنّما هي آثار عمل الله وعمل روحه القدّوس في حياة البشر. وهكذا يمضي المتحاورون معاً في التماس وجه الله، الذي هو إله جميع البشر، وفي البحث عن الحقيقة الكاملة الحيّة. هذا يقود إلى الاعتراف بتكامل نسبيّ لجميع مظاهر عمل الرّوح في البشر وفي التّاريخ. وهكذا يمكن للمسيحيّين أن يلاقوا مؤمني سائر الأديان بانفتاح كبير وبرغبة في اكتشاف مظاهر عمل الرّوح القدس، آملين أن يكتشفوا أبعاد حقيقة المسيح الشّاملة، وملامح الشّمول الواسع الّذي هو من مميّزات دين الله.

٢. الاحترام ومحبة الحقيقة

إنّه أسهل أن نتكلّم عن هذا كلّه من أن نقوم به في الواقع العمليّ. وليس الحوار، الحوار الأخويّ، الّذي يحبّذه المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ بمهمّة سهلة، إذ إنّه يفرض انفتاح الذّهن وطواعيّة القلب.

وإلى ذلك يجب على المتحاورين أن يحصلوا على معرفة وافية لدين الآخرين. وليس أمر الحوار قائماً بتبادل المجاملات: بل إنّه أمر جدّيّ يفرض الانفتاح والمودّة، ولكنّها مودّة واعية، تقبل بما تراه حقيقة وخيراً، وتوجّه الانتقاد إلى ما تراه بعيداً شاذّاً – هي مودّة مرتكزة على الأمانة ليقين دينها، ولكنّها تميّز في تراثها بين ما هو حقيقة الله وما هو من مظاهر جواب البشر على وحي الله. – وهي مودّة منفتحة على جهود الغير للبلوغ إلى الحقيقة والخير، للبلوغ إلى مرضاة الله. وهكذا فإنّ الحوار أساسه الأمانة للذاتيّة الخاصّة والانفتاح على الآخرين.

٣. العمل المشترك والتّعاون

إنّ العمل المشترك والتّعاون مهمّة كبيرة تسترعي انتباه جميع المؤمنين. إنّ إحلال السّلام والعدل في المجتمع، وتوثيق التضامن بين فئات المجتمع الواحد وبين الشعوب في

العالم وصيانة الطبيعة والبيئة ومواجهة التقنيّات الجديدة التي تهدّد بالتسلّط على الإنسان والطّبيعة، قضايا تهمّ جميع الشّعوب والأديان والبشر.

إنّ الحوار والتّعاون يشجّعان على الانفتاح والتّقارب، ويمكّنان المسيحيّين وغير المسيحيّين من أن يختبروا انتساب جميع البشر أمام الله بعضِهم إلى بعض، وتضامن جميع النّاس مع جميع النّاس أي أن يختبروا أخوّة البشر الشّاملة.

٤. العقبات التي تعترض ممارسة الحوار

إنّ العوائق الأساسيّة أمام الحوار بين الأديان تعود في أكثرها إلى عوامل بشريّة أو نقص في المتحاورين. ونسرد هنا بعضها:

١. تجذّر غير كاف في الإيمان الخاصّ [وأزيد معرفة غير مكتملة للدّين الخاصّ.]

٢. معرفة وفهم غير كافيين لمعتقد الدّين الآخر وشعائره.

٣. فوارق ثقافيّة تنجم عن اختلاف في مستويات التّعليم.

٤. عوامل اجتماعية وسياسيّة أو بعض ذيول الماضي.

٥. فهم خاطئ لبعض التعبيرات مثل ارتداد... (وجهاد) الخ.

٦. اكتفاء وعدم انفتاح يقودان إلى موقف دفاعيّ، بل إلى مُعاداة.

٧. عدم اقتناع بقيمة الحوار يجعل البعض يعتبرونه مهمّة محصورة بأصحاب الاختصاص أو علامة ضعف وخيانة للإيمان.

٨. الشّكّ في ما يتعلّق بدوافع الآخرين في الحوار.

٩. روح جدليّة (متوجّهة إلى التهجّم) عند التّعبير عن قناعات دينيّة.

١٠. التزمّت الّذي يتفاقم غالباً عندما يلتقي بعوامل أساسيّة واقتصاديّة... وانقباض في الحوار يمكن أن يؤدّي إلى الحرمان[١].

٥. مستويات الحوار وأهدافه[٢]

(١) هناك "حوار الحياة"، حيث يعمل النّاس على أن يعيشوا بروح انفتاح وحسن جوار، مقتسمين أفراحهم وأحزانهم، ومشاكلهم ومشاغلهم الإنسانيّة".

(١) راجع "حوار وبشارة"، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٣، ص ٣٧ – ٣٨.

(٢) راجع "حوار وبشارة"، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٣، رقم ٤٢، ص ٣١ – ٣٣.

(٢) وهناك "حوار الأعمال، حيث يتعاون المسيحيّون والآخرون في سبيل تنمية كاملة وتحرّر للإنسان غير منقوص".

وهذان الشّكلان يقابلان ما نسمّيه "العيش المشترك. وهما يعبّران عن إرادة البلوغ إلى حوار أخويّ وعلاقات صداقة وولاء بين المسيحيّين وغير المسيحيّين. فإنّ صِلاتِ الحياة اليوميّة والالتزامَ المشترك بالعمل تفسح المجال للعمل معاً على تعزيز القيم الإنسانيّة والرّوحيّة".

وقبل هذا الحوار على مستوى الحياة والأعمال المشتركة، أي في نطاق العيش المشترك يؤكّد أهميّة "التنمية التّامة والعدالة الاجتماعيّة وتحرير الإنسان"، فعلى جميع الفئات "أن تجنّد طاقاتها في سبيل حقوق الإنسان وأن تجاهر بمتطلّبات العدالة وأن تندّد بالمظالم، ليس فقط عندما تطال أبناءها، ولكن في غير منظار إلى الانتماء الدّينيّ لضحايا هذه المظالم. كما يجب أن يتكاتف الجميع ليحاولوا أن يَحُلّوا المشاكل الصّعبة الّتي يواجهها المجتمع والعالم اليوم، وليشجّعوا التربية على العدالة والسّلام".

وهناك مجالٌ خاصّ يجب الانتباه إليه، هو مجال الثّقافة.

(٣) حوار التّبادلات اللاّهوتيّة حيث يعمل أصحاب الاختصاص على تعميق الفهم للعقيدة الدّينيّة والتّراث الدّينيّ وتقدير القيم الدّينيّة والرّوحيّة الخاصّة بكلّ من الأطراف تقديراً متبادلاً.

ومثل هذا الحوار في العقيدة يقتضي من علماء الدّين "موقفاً متّزناً"، كما توضح الوثيقة نفسها. "عليهم ألاّ يكونوا مغفّلين ولا شديدي الانحياز إلى النّقد، بل أن يكونوا ذوي انفتاح وحسن تقبّل. فالتّجرّد والإنصاف، وقبول التّناقضات الممكنة "هي من مبادئ الحوار السّليم. ثمّ إنّ الوثيقة المذكورة تشدّد على أنّ هذا لا يعني أنّ المتحاورين ينسون عقيدتهم وتراثهم ويقينهم الخاصّ، بل هذا يعني أنّ عمل الله في حقيقته الشّاملة وخيره السّامي قد تتّضح معالمه بشكل من الأشكال لمؤمني الدّين الآخر.

وفضلاً عن ذلك فإنّ كمال الحقيقة التي تلقّاها المسيحيّون حسب إيمانهم أو غير المسيحيّين حسب معتقدهم لا يعني أنّ مؤمني هذا العصر قد استوعبوا هذه الحقيقة بجميع معطياتها وأبعادها وتفرّعاتها. إنّ البحث عن الحقيقة – أي في النّهاية إنّ البحث عن الله – عمليّة لا نهاية لها لأنّ الله لا تُسبر أغواره ولا توصف أبعاده وصفاً تامّا. فهو العليّ المتعالي، وابتغاؤه مشروع لا ينتهي.

ثمّ إنّ الحوار في العقيدة لا يرمي في هدفه الأخير التّوفيق الشّامل بين العقائد المختلفة والقناعات المتناقضة. فالتّحاور عليه أن يحترم أمانة المتحاور معه لدينه الخاصّ. إنّ الحوار يساعد على التّغلّب على أشكال سوء الفهم وسوء التّفاهم الّتي تراكمت عبر القرون، وعلى إزالة الأحكام المُسبقة المرتكزة غالباً على عدم المعرفة والتّسرّع في الحكم. وهكذا بالحوار الرّصين وتبادل الفكر النّاضج والبراهين المحكمة والاعتراضات الّتي تبحث عن مزيد من الفهم والمعرفة يمكن لأصحاب العلم أن يصلوا إلى تحديد دقيق لعناصر الاتّفاق ومواضع الاختلاف في العقيدة.

وهناك أيضاً نتيجة لا يستهان بها لهذا النّوع من الحوار الرّصين الصّافي وهي إنشاء جوّ تفاهم واستعداد للتقرّب بين المحاورين؛ وفي كثير من الأحيان تنشأ بينهم مودّة وصداقة وأخوّة... وهذا ما اختبرته أنا شخصيّا في مدّة قضيتها في الحوار مع بعض المسلمين تزيد على ربع قرن.

(٤) وهناك شكل آخر من الحوار ولعلّه أعمق تبادل بين المؤمن (المسلم) والمؤمن (المسيحيّ)، وهو تبادل الخبرة الرّوحيّة، وأحوال العبادة والتماس وجه الله... وكم من مرّة ارتاحت نفسي أنا شخصيّا إلى حديث روحيّ جرى بيني وبين صديق لي من المسلمين الأتقياء، حين كان يبادلني حديثه مع ربّه في صلاته ودعائه. وكم من دعاء بين الأدعية التي جمعتها من التراث الرّوحيّ الإسلاميّ وترجمتها إلى الألمانيّة ونشرتها، ذكّرتني بنفحات الرّوحانيّة المسيحيّة. واطمأنّ لها قلبي. ولا عجب. فإنّ قرابة الرّوح بين الإسلام والمسيحيّة أوثق ممّا يظنّ البعض، وأشدّ ممّا يتوهّم البعض الآخر...

٣- كلّ مؤمن موقن من حقيقة إيمانه. هل يتعارض ذلك في الحوار؟

١) يقين الإيمان

ليست المطالبة بالتسامح والحوار ناجمة عن أنّه ليس من أحد يعلم ما هو شأن الحقيقة وما هو مداها، وأنّ الأديان جميعها متساوية في الحقوق والقيمة، إن صحّ أنّها في نهاية المطاف سُبُلٌ، ولو كانت سبلاً غير اعتياديّة، للبلوغ إلى الخلاص أو أنّها على الأقلّ يمكنها أن تكون سُبُلاً إلى الخلاص.

إنّ المؤمن ينطلق من حقيقة إيمانه الأكيدة، ولا سيّما في ما يتعلّق بعقيدة دينه المُلزمة. وهو يحيا موقناً أنّ ما تقبّله وأقرّ به استناداً إلى كلام الله هو موافقة للحقيقة عند الله وفي الوقت عينه في ما يخصّ الحياة الدنيا عند البشر في مجال العالم الدنيويّ. ولذلك فإنّ من حقّه، بل من واجبه أيضاً، أن يقول بحقيقة إيمانه وأن يعترف بها ويتمسّك بها ضدّ كلّ امتحان وشدّة. فإنّ محتويات الإيمان المُلزمة هي أُسس استسلام عقل الإنسان وقلبه إلى الله ربّ الحقيقة والخلاص. إنّ هذه المُلزِمات لا يحلّ التّصرّف بها تصرّفاً حرّا. إنّها في جوهرها ليست موضع مراجعة وتصحيح مستمرّين أو استرجاع وإبطال.

يمكن أن تحصل فيها زيادات مكمّلة، إذ هي الأساس الذي يقوم عليه البناءُ كلّه. ولكن هذا التّوسيع لا يَعني التّراجع عن الحقيقة الّتي تمّت معرفتها وقام الاعتراف بها. ومثلُ هذا الاستكمال قد يتمّ عندما تُطرح أسئلة جديدة تقود إلى الإجابة عنها إلى فهم أعمق وتعبير أدقّ لمحتوى العقيدة. إنّ غنى الحقيقة يمكنه أن يتوسّع وينبسط. ولكنّ هذا لا يعني على الإطلاق التّخلّي عن الحقيقة، بل استكمالَها.

إنّ مثل هذه الحقيقة المُلزمة لا تقبل بالتسامح، بمعنى أنّها تُنكر إنكارها، أي أنّها تنكر ما يناقضها. وهذا ليس من التّكبّر والغطرسة في شيء، وليس هو تشامخ مَن يظنّ أنّه يملك وحده الحقيقة. هذا موقف المؤمن المتواضع الذي يوقن بأنّه عليه أن يصون هذه الحقيقة ويسعى في تفتّحها واستكمالها وفي جعل مفاهيمها وثمارها تظهر يانعة في حياته الشّخصيّة وفي حياة جماعته الدّينيّة.

٢) الحقيقة هي أساساً متسامحة ومنفتحة على الحوار

إنّ الله هو ربّ الحقيقة. ولذلك لا يَعني التّسامح في الحقيقة أنّه يمكن التّخلّي عنها والمساومة عليها والتّغاضي عنها في مجال المجاملات البشريّة. ولكن بما أنّ الله وحده هو ربّ الحقيقة، فالحقيقة الدّينيّة هي من طبيعتها متسامحة.

١. تأويل المطالبة بمطلقيّة الدّين المسيحيّ

إنّ القبول بفاعليّة الأديان غير المسيحيّة بالنسبة إلى الخلاص تدعونا إلى تأويل مطالبة الدّين المسيحيّ بالمطلقيّة تأويلاً أدقّ ممّا كانت عليه الحال في الماضي. فالمسيحيّة كبُنية اجتماعيّة للعقيدة المسيحيّة، وفي شكلها كجماعة قانونيّة معيّنة، لا يمكن اعتبارها

مطلقة. فليس هو مُطلق إلاّ الله وحده. فالمطلق هو نعمة، والمطلق في المسيحيّة هو المسيح، الذي هو "الطّريق والحقّ والحياة" (يوحنّا ١٤: ٦). فالكنيسة كبُنية قانونيّة وجماعة مؤمنين عليها أن تتوجّه بوحي المسيح، إذ إنّها لا تزال جماعة غير كاملة تسير على طريق الاكتمال. وملء المسيح هذا لن تبلغ إليه إلاّ في آخر الأزمان (راجع أفسس ٤: ١٤؛ كولسّي ٢: ٢؛ وأيضاً الرّسالة الأولى إلى أهل كورنثس ١٣: ٩). هذا، مع أنّ المسيحيّة لها فضل حاسم على الأديان الأخرى. ذلك لأنّ لها علاقة صريحة مباشرة بالمسيح، أي بالخلاص الّذي لا يعلوه خلاص، الّذي أنعم الله به على البشر. ولذلك تعتبر الكنيسة الحسّيّة ذاتها، على ما يشوبها من نقصان وتعثّر، مقام اكتمال الحقيقة والخير اللّذين تتضمّنهما الأديان.

٢. المسيرة إلى كمال معرفة ملء الحقيقة

إنّ الله متعال. والله هو الحقيقة المطلقة. ولا يصبر على آلهة أخرى دونه. والتّسامح الّذي نحن بصدده لا يتعلّق بحقيقة الله المطلقة هذه. إنّه يتعلّق بالحقيقة كما يعرفها الإنسان ويعترف بها. وهذه الحقيقة في الإنسان ليست بمطلقيّة، ولكنّها نسبيّة دائماً، أي أنّها لا تزال ناقصة، بحاجة إلى الزّيادة والاكتمال. إنّها ليست بمطلقة، ولو كان محتواها يتعلّق بالله وحقيقته المطلقة. إنّها ليست بمطلقة لأنّها يُنظر إليها هنا بالنسبة إلى الإنسان الذي يعرفها ويعبّر عنها.

فالله وإن أوحى بحقيقته، يظلّ متعالياً، أي فوق مقدرة الإنسان على الاستيعاب وفوق المفاهيم البشريّة وكلام البشر. وقد عبّر عن هذا بولس الرّسول بكلّ وضوح: "إنّ علمنا ناقص" (الرّسالة الأولى إلى أهل كورنثس ١٣: ٩). "فإن ظنّ أحد أنّه يعلم شيئاً، فإنّه لا يعلم بعد كما ينبغي أن يعلم" (الرّسالة عينها ٨: ٢). ولذلك فإنّه يُدلي بأمنيته تجاه المسيحيّين أن "تنموا في معرفة الله" (كولسّي ١: ١٠). ومثل هذه الأمنية يُطالعنا في رسالة بطرس الثّانية: "أن تعرفوا يسوع المسيح ربّنا معرفة أعمق" (١: ٨). "فأُنموا في النّعمة وفي معرفة ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح" (في الرّسالة عينها ٣: ١٨).

على المسيحيّين إذاً أن ينموا في المعرفة. هذا يعني أنّ جماعة المؤمنين المسيحيّين تسلك سبيل البلوغ إلى كمال معرفة ملء حقيقة المسيح. وعليها أن تتقدّم في مراحل هذا السبيل وتنمو في هذه المعرفة. ومن وسائل هذا النّموّ التّنبّه إلى ما تحتوي عليه الأديان غير

المسيحيّة من حقيقة وخير. فإنّ عناصر الحقيقة والخير هذه يعتبرها المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ من فعل العناية الإلهيّة (راجع الوثيقة في تنشئة الكهنة، Optatum Totius، فقرة ١٦)، وشعاعاً من حقيقة المسيح (التّصريح في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة، Nostra aetate، فقرة ٢). فالكنيسة "تعتبر كلّ ما يَكمُن فيها من خير وحقيقة كتمهيد للإنجيل وكهبة من ذاك الّذي يُنير كلّ إنسان" (الوثيقة في الكنيسة، Lumen gentium، فقرة ١٦)، أي كهبة من المسيح (راجع يوحنّا ١: ٩).

والكنيسة كاكتمال الأديان تقوم بمهمّتها عندما تسعى في سبيل البلوغ إلى كمال المعرفة لملء غنى حقيقة المسيح. وقدر اكتمال هذه المعرفة يتمّ البلوغ إليه، كما أشرنا إليه آنفاً، في آخر الأزمان. وحتّى ذلك الأوان يقود الرّوح القدس الكنيسة و "يرشدها إلى الحقيقة كلّها" (يوحنّا ١٦: ١٣).

فطالما تسير الكنيسة على هذا الدّرب لا يسعها أن تقابل الأديان غير المسيحيّة بمطالبة التّفرّد بامتلاك الحقيقة وبعدم تسامح صارم؛ بل عليها بالعكس أن تقابلها بانفتاح واسع وباستعداد لاكتشاف وتقصّي أبعاد عمل روح الله في تاريخ البشر، ذلك الرّوح الّذي لا تُقيّد حرّيته، والّذي يهبّ حيث يشاء (قابل إنجيل يوحنّا ٣: ٨). ومن ثمّ عليها أن تأخذ بعين الاعتبار الجادّ عناصر الحقيقة والخير الّتي يُنبتها الرّوح في هذه الأديان، وأن تعترف بها وتعزّزها وتتقبّلها في تراثها الخاصّ.

من هنا فعلى المسيحيّين أن يجهدوا في اكتشاف أفعال الله في العالم وفي التاريخ اكتشافاً أفضل وأوضح، وأن يتعلّموا أن يَعوا الأبعاد الشّاملة الّتي هي من خصائص دين الله.

٣. فيضُ غنى الحقيقة

إنّ الله المتعالي هو موضوع الحقيقة الدّينيّة الأوّل. فالإنسان إذاً عاجز عن البلوغ إلى معرفة تامّة لحقيقة الله المتسامية. ولذلك يجب على الإنسان أن يتّصف بالتّسامح في علاقته مع الّذين يؤمنون بالله ويلتمسون حقيقته. وبالنّظر أيضاً إلى غور غنى حقيقة الله اللامتناهية تتّضح حدود مقدرة الإنسان على تفحّص هذه الحقيقة. فإنّه ليس أحد يقدر على سبر غور حقيقة الله "وليس أحد يعرف ما في الله إلاّ روح الله" (الرّسالة الأولى إلى أهل كورنثس ٢: ١١).

إنّ حقيقة الله ليست فقط لامتناهية تعدو طاقة الإنسان على الفهم بحيث أنّ الإنسان إنّما يتنبّه إلى طلائع غناها أكثر من مقدرته على إدراكها. وإلى ذلك، فإنّ حقيقة الله هي في مضمونها الّذي يعتلن للإنسان، كثيرة الجوانب، بحيث أنّ الإنسان يضطرّ إلى البحث المتكرّر دوماً للبلوغ إلى تفحّص عناصرها وفهمها فهماً أقرب وأوضح وإلى إدراك فروعها والتعبير عن لطائفها.

فالتاريخ، كلّ التاريخ في عرضه وطوله، إنّما هو زمن صبر الله وحلمه؛ أي إنّه موطن تتفتّح حقيقة الله في معرفة البشر وحياتهم، أفراداً وجماعات، إذ إنّ هذه الحقيقة، وفقاً لما نعرفه عنها اليوم وفي أفق اختبارنا، ليس وثيقة أوامر أزليّة صيغت مرّة واحدة في عبارات وقواعد ثابتة. إنّها تُهيب بنا أن نتلمّس محتوياتها ومواطن تطبيقها بطريقة متواصلة على ضوء تاريخنا المتسلسل، وأن نجتهد في استنباطها وتطبيقها في حياتنا، (أي "أن نعمل الحقّ"، كما يقول إنجيل يوحنّا ٣: ٢١)، ونسبغ عليها الصيغة الموافقة.

فالواقع ليس أنّ المؤمنين يملكون الحقيقة ولهم حقّ التّصرّف بها. الواقع أنّ المؤمنين يُفيض لهم في المجال أن تمسّهم الحقيقة وأن يُنعِم الله بها عليهم. فلا داعٍ إذاً لأن يستكبروا تجاه الآخرين ويقابلوهم بالغطرسة؛ بل عليهم في تواضع عميق أن يُنصتوا إلى وقع خُطى الله ويتتّبعوا آثاره في إيمان البشر وحياتهم. وهم يأملون أن تقود أشعّة حقيقة الله، الّتي يمكن الاستدلال عليها استدلالاً متكرّراً في تراث الشّعوب الدّينيّ، إلى نصب جسد ثابت يربط مؤمني الجماعات كلّها بعضَها ببعض، ويرشدهم جميعاً إلى السبيل المؤدّي إلى وحدة دينيّة أوسع؛ هذا من باب التّطلّعات المستقبليّة.

٤- تطلّعات مستقبليّة

وليس غرضي اليوم أن أفيض في الحديث عن هذا المستقبل. ولكنّي أودّ أن أطرح بعض الملاحظات عن الموقف المسيحيّ حيال هذا المستقبل:

١) هناك ثلاثة مبادئ مسيحيّة لا يمكن التنازل عنها ولا يمكن استثناء أحد من أيّ منها:

١. "طوبى لصانعي السّلام"، هذا قاله الرّبّ يسوع المسيح في الإنجيل (متّى ٥: ٩). وتفصيله:

– افعل السّلام مع الآخرين، وهنا مع الخصوم في الماضي والحاضر.

– افعل السّلام مع الآخرين، اعمل على تأليف مجتمع مشترك يضمّ الجميع، يضمّنا نحن والآخرين.

– افعل السّلام مع الآخرين، أي أن نسعى معاً، ونفكّر معاً ونقرّر معاً وننفّذ معاً.

٢. "وقد ارتضى الله أن يصالح مع نفسه الجميع بالمسيح يسوع" (كولسّي ١: ١٩ – ٢٠).

– فإن كان الله قد أراد أن يصالح الجميع مع نفسه "فلا يحقّ للمسيحيّين أن يرفضوا المصالحة مع أيّ شخص في العالم.

– وإن كان الله قد أراد أن يصالح الجميع مع نفسه، فعلينا أن نعرض المصالحة على الجميع وأن ندعو الجميع إلى المصالحة.

وهذا لا يعني أنّنا نتغافل عن صعوبات الماضي وعقبات الحاضر. بل نستفيد من عبرة الماضي، لتحسين أوضاع الحاضر، ونستفيد من تجارب الحاضر لبناء المستقبل.

– وإحدى النّتائج العمليّة هي الاهتمام الفعّال بمشروع معيّن أودّ أن أسمّيه "كتابة تاريخ التّصالح والتّصافي" بين المسيحيّين والمسلمين.

فإنّنا نعرف جيّداً وبالتفصيل تاريخ نزاعاتنا وصراعاتنا وعداواتنا.

ولكنّنا لا نعرف إلاّ معرفة ناقصة تاريخ تصافينا، وتاريخ التّبادل الثّقافيّ والاجتماعيّ بيننا، والتّعاون، وتاريخ صداقاتنا.

ولذلك فمن المهمّ أن نستنبط تاريخ المصالحة والتّصافي من ظلمات الماضي ووثائقه... تمهيداً لبناء حاضر أفضل، ولبناء مستقبل تسود فيه العدالة والمودّة بين المسيحيّين والمسلمين.

٣. "أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا" (يوحنّا ١٥: ١٢) والمسيح أحبّ العالم كلّه. لقد جاء ليخلّص العالم كلّه.

– فنحن إذاً أقرباء جميع النّاس. ولهم علينا دَينٌ دائم، هو المحبّة (الرسالة إلى الرّومانيّين ١٣: ٨).

٢) من هنا واجب التّضامن مع الجميع... وتنفيذ هذا التّضامن، أي تضامن الجميع مع الجميع. [في إنجيل يوحنّا تكلّم يسوع عن الحقيقة التي يجب أن تُفعل (يوحنّا ٣: ٢١). وفي آخر مثل السّامريّ، قال للّذي سأله: من قريبي وشهد أنّ السّامريّ صار قريباً للمنكوب، قال له: "إذهب وافعل أنت أيضاً هكذا" (لوقا ١٠: ٣٧). فالسّؤال الحقّ إذاً ليس هو: "من قريبي"، بل "من أ،ا قريبٌ له".]

فالقضيّة قضيّة حقيقيّة توضع موضع التّنفيذ.

وقضيّة محبّة شاملة تطبّق على الجميع.

وذلك يزداد ضرورة إذا اعتبرنا أنّنا نعيش في عصر تنمو فيه وحدة تشمل جميع النّاس:

– وحدة الحاضر – ووحدة المستقبل – ووحدة المصير.

فلا يحقّ لأحد أن يحتكر الحاضر أو المستقبل لنفسه على حساب الآخرين.

بل حاضرنا حاضر الجميع بالتّعاون والتّضامن مع الجميع. ومستقبلنا مستقبل الجميع بالتّعاون والتّضامن مع الجميع.